الفصل الثانى

إسلام شبه الجزيرة الإيبيرية

يقدم الكاتب فى افتتاح هذ الفصل حديثا عن وجود دور أسبانى فى ظل القوط الغربيين، ولكنه دور رومانى الطابع غير متميز. واستمر هذا الدور الرومانى تحت الراية القوطية حتى وصول المسلمين وسيطرتهم على شبه الجزيرة الإيبيرية لتنفصل أسبانيا عن مجرى التاريخ الأوروبى الذى سارت فيه الدول الأوروبية الأخرى. ولم يلبث المسلمون إلا قليلا حتى بدأت المقاومة المسيحية تبدو محسوسة، وتجبر المسلمين على الدخول فى حرب الثغور، والواقع - كما يرى الكاتب - أن الإسلام كان غير قادر على خلق أبنية أساسية متينة بسبب حضارته ذات الطابع السحرى التى منعت الزعماء المسلمين من أن يحاطوا بشعوب قادرة على خلق أنظمة مستقرة تتعايش فى ظلها هذه الشعوب ومع ذلك فقد كان الإسلام يمثل الثقل الحضارى الوحيد، وله أدب غنى فى محتواه، وهو أدب يقوم على أدوات تعبيرية تملأ النفس دون نظير يوازيه فى روما. وقد استمر الإسلام فى أسبانيا طالما وجد زعماء أقوياء يكهربون الناس بانتصاراتهم. وقد عاش فى ظل الإسلام عدد من المسيحيين بفضل تسامح هذا الدين إلى أن جاء المرابطون والموحدون فقضوا عليهم (١٠٩٠ - ١١٤٦). ويستمر الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الثغور شاغلا التاريخ الأسبانى كلية حتى منتصف القرن ١٣م حيث يحتل المسيحيون قرطبة عام ١٢٣٦م، وبلنسية عام ١٢٣٨م وأشبيلية عام ١٢٤٨م[١]. ومنذ ذلك الحين يحاكى المسيحيون المسلمين، فيظهر مقابل طوائف المسلمين طوائف مسيحيون[٢]، ويهمد دافع «حرب

---

(١) بدأت سلسلة سقوط المدن الأندلسية فى يد المسيحيين بسقوط طليطلة عام ٤٧٨. وتم سقوط بلنسية على يد «السيد القنبيطور» عام ٤٨٨هـ، وتم استعادتها على يد الأمير أبى محمد مزدلى قائد يوسف بن تاشفين عام ٤٩٥هـ وعادت للسقوط نهائيًا عام ٦٤٦هـ، بثلاثة أعوام بعد سقوط عاصمة الإسلام فى الأندلس «قرطبة». أما أشبيلية فقط سقطت عام ٦٤٦م (الطيب جـ٤).

(٢) يقصد ملوك الطوائف، ولكن ممالك الطوائف المسيحية كانت بؤرا للتجمع بعكس الطوائف المسلمين كانت بؤرا للتمزق والتفرق.

الاسترداد» وتبطأ حركة هذه الحرب إلى أن يأتى الملكان الكاثوليكيان (فرناندو، وايزابيلا) فيوحدان طوائف أسبانيا وينهون هذه الحرب فى نهاية القرن الخامس عشر، لن أكرر ما حدث أثناء هذه الفترة - لأن أحداث هذه الفترة معروفة، ولكننى سأوجه اهتمامى إلى نواحى الحياة الوسيطة التى تداخلت - فيها - الحضارتان الإسلامية والمسيحية ليس لقص أثر الإسلام فى أسبانيا المسيحية فحسب وإنما للوصول إلى وجهة نظر ذات كفاءة فيما يتعلق بنسيج الحضارة الإيبيرية: هكذا يقول الكاتب مشيرا من جديد إلى منهجه البنائى مؤكدا هذه الإشارة بأنه واجه المشكلة فى محاولة له عام ١٩٣٨ للكتابة عن بعض مشاكل القرنين ١٥، ١٦. فقد وجد نفسه غير قادر على ترجمة ما هو إسلامى فى لوحة التاريخ الأسبانى كما لم يستطع أن يستغنى عنه، فتفادى الأمر بطريقة غير مناسبة للدراسة. وبذا لم يتمكن من تحديد المشكلة لأنه حتى ذلك الوقت كان واقعًا تحت سيطرة تفكير سادة المؤرخين فى «مادة» وليس فى «صيغة» تاريخية.

وبعد ذلك ظهر للمؤلف أن العصر الوسيط المسيحى كان «مهمة جماعة مسيحية» لكى تصمد أمام عالم استمر - طوال النصف الثانى من هذا العصر - متفوقًا عليهم فى كل شىء إلا فى الجسارة والقيمة والتعبير الملحمى. إن المسيحيين قد تبنوا جمهرة من الأشياء المادية والإنسانية التى أبدعها المسلمون ولكنهم لم يستوعبوا الأنشطة المنتجة لهذه الأشياء لسبب محدد، وهو أنهم كان عليهم عمل أنشطة أخرى مختلفة لمواجهة المسلمين، ثم الانتصار عليهم.

ثم يستعرض المؤلف الوضع الإسلامى المسيحى: عظمة المسلمين ومدنهم التى لم يشهد المسيحيون لها نظيرا، وملوكهم الذين كان يهب الملوك المسيحيون لهم بناتهم. حضارة متفوقة ماديا وروحيا أمام قوم فقراء لا يملكون إلا الإيمان المسيحى والإحساس بأن الجسارة والنبالة وما وراءهما من مكسب لا يتنافيان مع الإيمان، هؤلاء القوم تلخصت حياتهم وخطتهم فى محاكاة المسلمين حتى يسودوهم. ولم يكن هناك - على أى الأحوال - أى انفصال جغرافى أو عنصرى كامل بين المسيحيين والمسلمين، فالمسيحيون الذين عاشوا فى ظل التسامح الإسلامى بدأوا يهاجرون أفواجا من المدن الإسلامية (١١٢٥-١١٤٦). كما عاش فى ظل الممالك المسيحية أولئك المدجنون الذين تدين لهم بعض المدن الأسبانية بأجمل الآثار الفنية التى تم إنجازها على أيديهم مثل القصر فى أشبيلية وباب الشمس فى

طليطلة[1] . أيضًا هؤلاء المرتدون من الدينين الذين تبادلوا الهرب بين الشعبين، هذا كله بجانب أمور أخرى كثيرة للاتصال جعلت المعايشة بين الشعبين والدينين سهلة لا سيما فى القرون الأربعة الأولى من الوجود الإسلامى الذى استمر أكثر من تسع قرون تنتهى بطرد الموريسكوس نهائيًا عام ١٦٠٩م (وإن كان يشك فى بقاء بعضهم بعد ذلك). إن آلاف الكلمات العربية قد تسللت للأسبانية كضرورة ونتيجة لهذه الاتصالات والمعايشة.

ولعل من أطرف وسائل الاتصال أولئك «شيوخ المنصر» الذين عملوا كجواسيس لصالح الشعبين لمقدرتهم فى إجادة اللغتين العربية والرومانثية.

ثم ينتقل مؤلفنا إلى «الموريسكوس»[2] وطردهم من أسبانيا. ويتساءل هل كان طردهم من وطنهم مبررا؟ إن الحس الأسبانى بأن الحرب بين المسيحيين القدماء والموريسكوس كانت حربا أهلية بين أسبان وأسبان، فلماذا يطردون؟ إن الزراعة والصناعة فقدت الكثير - بل كل شىء- بطرد هؤلاء. إن شهرة الموريسكوس وذكاءهم وتفوقهم وكثرة نسلهم فضلا عن زواج بعض الأسبان من مويسكيات، وتعاون الموريسكوس مع بعض أعداء أسبانيا فى أعمال التجسس، كل هذا أثار حفيظة الأسبان من المسيحيين القدماء، وجعل إحساسهم بالخطر الموريسكى يعلو ويدفعهم لمحاربتهم حربا قاسية لا هوادة فيها، مما جعل الموريسكوس يتمردون مرارا ثم يطردون. ولكن على أى الأحوال - رغم هذه المهارات الموريسكية التى يضاف إليها ثراء فولكلورى - فإنهم لم ينجبوا ابن حزم أو ابن رشد آخر، وأدبهم الخامياد المحفوظ حتى الآن يشهد بأن المسيحيين تفوقوا عليهم روحيًا وعسكريًا. إن الكتب التى ألفت بسبب طرد الموريسكوس بين ١٦١٠، ١٦١٣ (٢٠ كتابا بين مطبوع ومخطوط) تثبت كم كان هذا الحدث يعنى الرأى العام. لقد استخدم العنف والإقناع ولكن هذه السلالة بدت عصية على أن تقهر. إن الموريسكوس كانوا يشعرون بأسبانيتهم

---

(١) القصر تم تشييده فوق أطلال قصر المعتمد بن عباد حيث استقر عدد من ولاة الموحدين ثم الملك سان فرناندو وخلفاؤه بعد الاستيلاء على أشبيلية، ولم يبق من هذا القصر القديم سوى «باب الجص»، والقصر الموجود الآن فقد شيده «بدرو القاسى» وأصلحه جزئيًا من بعده الملكان الكاثوليكيان ثم كارلوس الخامس. وتشهد واجهة القصر بروعة فن المدجنين ولازالت الحدائق العربية تخلق جوا إسلاميا حول القصر.

(٢) الموريسكوس (أو الموريسيكيون): هم المسلمون الذين بقوا فى أسبانيا بعد انتصار الأسبان النهائى فى حروبهم ضد المسلمين التى أطلق عليها حرب الاسترداد. وقد عمد الموريسكوس تعميدا مسيحيًا وعاشوا مسيحيتهم مع الشك العام فى إيمانهم المسيحى مما أدى فى النهاية إلى محاربتهم وطردهم من أسبانيا مع ما أسفر عنه ذلك من توقف النشاط الإنتاجى الذى كان يقع على كاهل الموريسكوس.

كالمسيحيين القدماء وقد كانوا يؤسسون ضمير أمة على أساس من ماض مجيد. وكانت محاسنهم نابعة من العمل والثروة الاقتصادية التى تترتب على العمل. وقد ضحت الملكية الأسبانية بهذا لأن الثروة والرفاهية بالنسبة لها ليست شيئًا أمام الشرف الأسبانى المؤسس على الوحدة الدينية والسيادة المطلقة للسلطة الملكية. إن المواثيق والتفاهم مع غير المؤمنين كان شيئًا ينتمى إلى القرون الوسطى، ولذا كان وجود الموريسكوس (المشكوك فى إيمانهم) أمرا يخالف تسلسل التاريخ، ومع ذلك فإن هيكل الحياة الوطنية كان عليه أن يتابع نفس الهيكل الوسيط: حيث كان المسلم يعمل وينتج، بينما المسيحى يتسيد فى غيبوبة نشوانة بسبب الإحساس بالعظمة الشخصية. إنه لا يمكن فهم صور الفلاحين والمتصوفين والحرفيين عند «الجريكو»، تلك الصور التى تبدو فخيمة لا لشىء إلا لكونها صورا محاكية لهذه الفئات التى عاصرت الجريكو، وكانت ترفل فى النعيم والفخار، وتتآمر ضد الدولة، إن أسبانيا فى عهد كارل الخامس كانت تشعر بقوتها، وكان لديها بقية من مرونة تحافظ على دفعة باقية من التراث، ولكن فى عهد فيليب الثانى يدخل كل شىء فى دائرة التشدد فينتهى الاعتدال تجاه الموريسكوس، ويترتب على ذلك أن ينطلق الموريسكوس لحمل السلاح لأنهم قد اشتموا نهاية الإمبراطورية الأسبانية. وهذا واحد منهم يقول: «أنا لا تهمنى الإمبراطورية الأسبانية الممتدة، لأن الدول - وصدقونى! - عندما تصل إلى نقطة العظمة فمن المحتم أن تنهار لأن القوى الكبيرة تهدمها الرشوة والشهوة والملذات التى تصاحب الرفاهية... وبصرف النظر عن هذا فنحن لسنا عصابة لصوص بل مملكة. إن أسبانيا ليست أقل مرضا من روما»[1] والحقيقة أن فيليب الثانى احتاج لكل قوته لكى يتغلب على الموريسكوس فى سلاسل جبال غرناطة وبالضرورة فإن جماعات هؤلاء الموريسكوس سوف تقل بسبب سوء تسليحها بعد ثلاث سنوات من الصراع. إن هذه الحرب الأهلية ثم أخيرا طرد هذه السلالة التى لا نظير لها حدثان كان عليهما أن يطرحا كصيغ للمشكلة موضوع الاختلاف. لقد أدى ذلك إلى انشقاق - ولكن مع أضرار أليمة وخطيرة لكلا الطرفين - لأن تناقض «العقل» كان يمضى مصحوبا بتعاطف «الحياة». إن هذا التعاطف كان أساسه مجتمعًا ذا تجربة أخلاقية واحدة غير قابلة للتصالح مع «عقل» حكومة إمبراطورية ثيوقراطية.

(١) يلاحظ تأثره بنظرية ابن خلدون حول أعمار الدول وسقوطها (راجع مقدمة ابن خلدون).

لم يعد المسلمون والمسيحيون يأوون إلى العقيدة التي أظلتهما فى العصور الوسطى. ومع ذلك فالموريسكى ظل يحس بأسبانيته «أينما كنا فإننا نبكى من أجل أسبانيا، ففى النهاية نحن ولدنا فيها وهى وطننا الطبيعى. . . الآن أعرف وأخوض تجربة ما تعود الناس على قوله: كم هو حلو حب الوطن» هكذا يتحدث الموريسكى المطرود من أسبانيا فى رواية دون كيخوته (II,54). ويرى أسقف غرناطة الأول «فراى ارناندو دى تالفيرا» أن المسيحيين القدماء والموريسكوس سيان فهم مسيحيون طيبون ويمكن أخذ الموريسكوس إلى حظيرة إيمان القدماء وأخذ القدماء إلى دائرة أعمال الموريسكوس الطيبة، ولم يكن هذا الحس العاطفى مؤقتًا أو سياسيًا، فهذا المؤرخ بيرمودث دى لابدراسا[1]، إذا كان قد رأى أن الموريسكوس ينقص بينهم الإيمان ويكثر التعميد، فإنه يؤكد أن لهم حسنات طيبات أخلاقيا، فهم صادقون جدا فى التعامل والتعاقد، وذوى بر مع فقرائهم، يقل بينهم العاطلون لأنهم جميعا عاملون مجتهدون.

هنا يكمن صراع جديد، فى زمن اتصف جذريا بالصراع. إن ذلك الصراع ينتهى بأن يظهر على هيئة تعبير فى الأساليب المسماة بـ(الباروكوس)[2]. إذن لا يناسب أن نبسط الأمر هذا التبسيط المبالغ فيه بقولنا: إن التعصب الأسبانى هزم الإصرار الإسلامى المتمرد على الوحدة الحديدية لأسبانيا فى عصر فيليب الثانى، فالحاسم فى المشكلة هو الصدام بين العقل والحياة، ذلك الصدام الذى وعى به الذين كان لهم حلم مثالى بتنسيق «الإيمان بدون عمل» لأولئك المسيحيين القدماء مع «العمل بدون إيمان» للموريسكوس، وبفشل هذا التنسيق بينهما تصبح الكارثة الاجتماعية حتمية. ويلاحظ «العيسوى بدر وجوثمان» فى ١٦١٤ أن بعض الموريسكوس (ويطلق عليهم البروتستانت المبتدعين) كانوا يدينون فى سعادتهم للحال النابع من ممارسة «العمل» كقيمة اجتماعية وبناءة[3]. بطريقة أو بأخرى، كان الناس فى أسبانيا يحسون بما هو «الإنجاز الممتاز» مع أن تحقيق مثل هذا الإنجاز كان

---

(١) Segun Bermodez De La Pedraza, en Antiguedades y excelencias de Granada folio Gl, Citado por P.longas Vida religiosa de los moriscos, Madrid 1915, P.LXXV.

(٢) أسلوب فى الفن والأدب يقوم على الزخرفية المثقلة بالصور والفكر، ولعل له بعض الجذور الإسلامية متمثلة فى شعر أبى تمام وفى الفن الإسلامى، وأيضًا تبدو العلاقة بين منظور هذا الفن ومنظور التصوف الإسلامى فى رؤية العالم.

(٣) Pedro de Guzmàn, Bienes de honesto trabajo. Madrid 1614, Paginas 119, 120

مستحيلا، وهذه الثنائية المشكلة بين الوعى والسلوك تعد مقدمة منطقية، منها تشتق السمات الدائمة وذات المستوى العالمى للحضارة الأسبانية.

وفى القرن ١٦ يضج إقطاعيو أراجون بالشكوى من سلطات التفتيش التى تطارد تابعيهم من الموريسكوس كما نرى فى بلاغ مندوب التفتيش فى أراجون إلى مدريد عام ١٥٥٣م. وفى عام ١٥٥٦م يعدم أدميرال أراجون «دون سانشو دى كارودنا» لتسامحه مع الموريسكوس حتى أنه سمح لهم بإعادة بناء مسجد صغير كما نسب إليه نية الذهاب إلى البابا وحتى إلى سلطان تركيا فى احتجاج على طقوس التعميد الإجبارى المفروضة على الموريسكوس البلنسيين، عمومًا أصبح غير مطروح الامزاج بين «الإيمان بدون عمل»، و«العمل بدون إيمان» كذلك استبعد التنسيق فى محيط المصالح الاقتصادية. هكذا يبدو نهائيًا أن «أشياء» هذا العالم الملموسة والمتبادلة لم تكن أبدا محسوسة بالنسبة للروح الأسبانية مع أن هذه «الأشياء» نفسها هى التى تحسم - فى اللحظة الأخيرة - قدر أسبانيا: فالمسؤولون عن الحياة العامة، لم يستطيعوا أن يروا فى الموريسكوس أكثر من إرادة متمردة، ولم يعد فى الأفق حقل للالتقاء فى مصالح مشتركة بين حب الموريسكوس لأسبانيا وبين ذلك التقدير الذى تحمله بعض القلوب ذات المزاج الشفاف نحو الموريسكوس، هذا دفع الصراع إلى أن ينقلب إلى مواجهة بين إرادتين عاريتين غير متكاملتين، فيما يتعلق «بأشياء» هذا العالم الخارجى السالب الذى يتنمى إلى الجميع ولا ينتمى إليه أحد. ونتيجة هذه المواجهة بين الإرادتين لم يكن من الممكن إلا أن تكون تصفية جانب من الجانبين دون إمكان النظر إلى شىء آخر. أما سادة أراجون فقد تم قهرهم، وسقطت حقولهم إلى هوة البؤس. وإنى لأرى أن بقية الحنق الأراجونى - ضد السلطة القشتالية المركزية خلال القرن السابع عشر - قد وجدا مأوى له فى المطبوعات، من كتب تغص بالمرارة والهجاء. ومعنى ما سبق أن الأمر لم يمر فى استسلام كامل للنظام الكائن، فالطبعات الأولى للأعمال الأكثر جرأة ولذاعة لكيفيدو صدرت فى أراجون ولم تصدر فى قشتالة، ومن المؤكد أن سياسة التوحيد لفيليب الثانى والمضادة لقوانين أراجون، كانت حافزًا لليقظة لأى هجوم ضد المجتمع. كما أن الفكر ينبغى أن يذهب إلى أن طرد الموريسكوس ساهم فى هز التضامن الفقير بين ممالك أسبانيا المختلفة.

ومن ثم، يمكن حساب المسافة الزمنية - عائدين إلى الوراء - بين طرد الموريسكوس ١٦٠٩ وطرد اليهود ١٤٩٣، لنرى أن هؤلاء وأولئك - فى مجموعهم - شكلوا جزءاً من أسبانيا وامتدادا لشعبها كما يبدو فى كل ما قرأنا من هجوم عليهم أو مديح لهم. ومع ذلك فاليهود كانت لهم وظيفة اجتماعية مختلفة. وقد نجحوا فى ضمان حماية بعض السادة لهم بما أبدوا من رقة وعبقرية ولا سيما فى جمع المال لهؤلاء السادة - كذلك قاموا بنشر أساليب فطنة من التصوف وصبوا فى أدب القرنين ١٦، ١٧م مواضيع وأساليب مترجمة عن العربية - وبذا نرى أن الدائرة التى بدأت بالمستعربين الخاضعين للمسلمين فى القرن ١٣م تقفل بالموريسكوس الخاضعين ثم المطرودين على يد الثيوقراطيين فى القرن ١٧م، وهذه القرون التسعة منذ الفتح العربى حتى طرد الموريسكوس، والتى قمنا ببسطها بين يدى القارئ وعلى مرأى منه، لا بد أن تترك أشياء فريدة فى اللغة والعادات والدين والفن والآداب، وأيضًا ملامح أساسية فى الطابع الأسبانى تتطلب أن نضع فى اعتبارنا هذا التداخل الذى استمر أجيالا. علينا أن ننظر إلى كل هذا كصيغة بنائية للتاريخ بل كمحتوى للحياة. ونكرر أن أسبانيا المسيحية لم تكن شيئًا قد امتلك وجودا خاصا ثابتا سقط عليه النفوذ الإسلامى كشىء مؤقت مثل «الموضة» أو كنتيجة للحياة فى تلك الأزمنة. إن أسبانيا المسيحية قد تشكلت بينما كانت تنتصب وتتطعم حياتها بما دفعتها إليه الروابط مع ما هو إسلامى.

وينهى المؤلف ما سبق كمقدمة لهذا الفصل بإعلان هام: وهو أنه لن يحكى تفاصيل تاريخ الحضارتين الإسلامية والمسيحية فقد تم ذلك فى جمهرة من الأعمال التى يعجز عن ذكرها، إنما هدفه بيان كيف صيغت خصوصية القيم العظيمة الأسبانية. قد يخطئ أو ينخدع ولكنه واثق من أنه سيصوغ حكمه على ما هو أكثر أصالة وعالمية - للنمط الأسبانى العبقرى وأصل هذا النمط - فى صيغ حياة انصهرت فى تسعمائة عام من النسيج المسيحى الإسلامى اليهودى.

اللغـــة :

ليس هناك أكثر بلاغة من اللغة : آلاف الكلمات العربية تواجهنا فى اللغتين الأسبانية والبرتغالية، كانعكاس لاحتياجات حتمية، تماما مثل اللاتينية التى قبلت آلاف الكلمات الإغريقية. وكثير من تلك «العربية» يخلد فى لغة الأدب والكلام. أما البناء النحوى فلم

يتأثر «بالعربية» لأن التراث الرومانثى اللاتينى المكتوب لم يفقد كاملا، وتأكد بقاؤه بمحاولات الدول المسيحية، لتكثيف وعيها الوطنى [1] ولو سيطر المسلمون على كل أسبانيا، لتغير وجه اللغة الأسبانية الرومانية، ولكن الذى حدث أن الكلمات العربية، دخلت الأسبانية خلال مجرى حياة هذه اللغة بإجبار الحاجة وليس بسيطرة السلطة. «فالعربية» فى «الأسبانية» - بعكس «النورماندية» فى «الإنجليزية» - تدين لاستيراد أشياء لا غنى عنها من منتجات صادرة عن قدرة إنتاجية تبرز تفوقها، وهذه المنتجات كما تبدو فى المعجم تنتمى لجوانب متعددة فى الحياة: الزراعة - الفن - البناء - المهن - التجارة - الإدارة العامة - العلم - الحرب. ويقدم الكاتب حشدا من الكلمات التى تثبت أن «العربى المسلم» كان ضرورة فى حياة المجتمع المسيحى فى معظم جوانب الحياة. وبقى هذا الأثر فى اللغة حتى اليوم ولا سيما فى البناء والرى بل إن أعلى مراتب التقنية فى الرى تظهر فى كلمات الأسبانية ذات الأصل العربى. وفوق ذلك، فإن ملاحظة الكلمات التى تتصل بالماء تدفع إلى اكتشاف أن الدراسات المعجمية «العربية الأسبانية» قد أهملت كثيرا تتبع الكلمات الأسبانية ونظيراتها العربية فى استعمالاتها فكلمة «عين» العربية تشير مثلا إلى ينبوع الماء، وهذا يفسر الاسم الجغرافى «عيون الوادى Ojos de Guadiana » ويكفى النظر فى هذه العينات من الكلمات لإدراك مدى امتداد وعمق النسيج الإسلامى المسيحى، وهنا يشير مؤلف الكتاب إلى أنه لم يذكر الكلمات ذات الصبغة الحربية والصناعية التى تدل مع غيرها من مشاركة فى صيغ الحياة المادية، ويمضى الكاتب متحدثا عن الكلمات الدينية. إن هذه الكلمات لا نجد منها إلا الكلمات التى تشير إلى المصطلحات الدينية الإسلامية لأن الأسبان عاشوا داخل مسيحيتهم وراء حدودهم إلى الأمام دائمًا، لكنهم لم يستطيعوا تبنى الصيغ الثقافية أو العلمية ما عدا أسماء النجوم التى أسبنها عن العربية «الفونسو العالم». ولم يحدث أن دخل الأسبانية كلمات علمية مثل الكلمات العلمية التى دخلت من الإغريقية إلى اللاتينية، حيث إنه لم يحدث أن فعل أسبانى مع العرب العظام أمثال

---

(١) عدم التأثر النحوى الذى يقطع به الكاتب أمر مشكوك فيه لأن اللغة الأسبانية تنفرد بظواهر غير موجودة فى الفرنسية والإيطالية مثل ظاهرة التقديم والتأخير بل إن كثيرا من الصيغ التركيبية اللغوية الشائعة الاستعمال توازى تماما صيغا عربية سابقة لها وكل هذه الصيغ «الأرابيسمو» تحمل معها أبنية نحوية عربية خصوصًا استعمالات حروف الجر. والأمر يحتاج إلى دراسة لغوية مقارنة مكثفة، ومع ذلك فالتأثر النحوى سيكون أقل جوانب الآثار العربية فى الأسبانية وأكثرها دلالة كلما أمكن العثور عليه.

الغزالى وابن رشد وابن حزم . . . الخ مثلما فعل سيسيرون وسنيكا مع الإغريق عندما ترجموهم وتبنوا أفكارهم لاتينيا، ولكن ينبغى أن نعرف أنه بجانب كلمات الصيغ المادية للحياة، وجدت كلمات ترتبط بالجانب الآخر المعنوى من الحياة، انتقلت من العربية إلى الأسبانية .

وإذا كان الوجود الاشتقاقى لكلمات عربية فى الأسبانية يعبر عن مشاركة حسية فى صيغ الحياة، فإن الترادف فى استعمال الكلمات المناظرة لدليل على التعاطف النفسى مثل كلمات عين Ojo، ظل Sombra، وقصر Palacio بيت Casa وخجل Verguenza : فالأولى بمعنى عين ماء، والثانية بكل استعمالات ظل العربية والثالثة بمعنى غرفة، والرابعة بمعنى عمران سكانى كقرية أو مدينة والخامسة بمعنى شرف منتهك، وهذه الاستعمالات لا نظير لها فى أى لغة رومانثية أخرى إلا البرتغالية التى نصيبها من «العربية» هو نصيب الأسبانية .

من الواضح هكذا - أن كثيرا من صيغ اللغة تصبح غير مفهومة ولا مبررة إلا عبر انعكاس الإسلام فيها، ولعل من الكلمات ما له من الدلالة الكبرى حتى تستحق أن تفرد له دراسات مستقلة مثل كلمة Hidalgo . وهى كلمة يوصف بها الإقطاعى الصغير . إن كلمة algo «التى تسبقها كلمة» «ابن Hijo» لتشكيل كلمة Hidalgo تعنى الثروة والشرف معا، والكلمة استعمال عربى طعم به الإسلام السلوك المسيحى . ولا شك أن استعمالات «ابن» العربية كانت ولازلت تفيد الانتماء وقد فقدت قيمتها المجازية كما لو استعملت فى اللغات اللاتينية كقولنا بالفرنسية «ابن باريس» التى تفهم فهما عاطفيًا لا وجود له فى الاستعمال العربى، ولعل كلمة algo معادلة لكلمة «الخمس» العربية التى تستعمل للإشارة إلى نصيب الدولة فى أرض البلاد المفتوحة وغنائمها، كما تستعمل ترجمتها الأسبانية quinta للدلالة على نصيب ملك أسبانيا من غنائم الحروب ومن الذهب الفضة المجلوبين من أمريكا، وقد أطلق على زارعى الخمس فى الأندلس «أبناء الخمس» وهى كلمة فى شكلها ومحتواها تقابل Hidalgo الأسبانية . وقد حاول المؤلف - بعد هذا التصور - أن يجد كلمة عربية تشير إلى الثروة والشرف معا، فلم يجد [1] ، وعقد الأمل على اليوم الذى يصبح فيه الأمر أكثر وضوحًا عندما ينجلى الوضع الاجتماعى فى الأندلس . ويتصور المؤلف أن هذا الاستعمال قد جاء مع هجرة المستعربين، وقيامهم بترجمة الفكرة العربية

(١) تكاد تقابل الكلمة العامية المصرية «ابن عز» الكلمة التى يشير إليها الكاتب Hidalgo .

إلى الأسبانية، وهذا يفسر استعمال كلمة enfante (ابن - ولد) بمعنى نبيل ثم بمعنى ولى العهد فى مقابل استعمال «الولد» فى العربية وعلى أى الأحوال فهذه الاستعمالات لا تعرفها اللاتينية ولا الرومانثيات وهى إسلاميات تسللت إلى التفكير الأسبانى باللغة، ومن الأسبانية تسلل بعضها إلى اللغات الأوروبية الأخرى.

تأثيرات قرآنية :

إن آلافا عديدة من الأمثال الأسبانية، والأقوال السائرة لها نظير فى القرآن، ونضرب مثلا لذلك قولهم: «حمار يحمل علما» وتردد العبارة نفسها : «حمار يحمل آدابا» وإذا ذهبنا إلى البرتغال - وقد احتفظت لغته بالعربية أكثر من اللغة الأسبانية لعزلة البرتغال عن أوروبا - سنجد العبارة قد صارت : «حمار يحمل كتبا» وهى نفس النص القرآنى كـ «الحمار يحمل أسفارا» وهذا يعنى أن النص القرآنى نفسه قد استعمل، ثم استبدلت الأسفار بالعلم أو بالآداب ليصير المثل شيئًا غير مفهوم إلى حد ما.

وينهى المؤلف هذه الإشارات اللغوية التى تخلو من أى أهداف لغوية علمية محضة لأن منهج المؤلف لا يبحث عن الحدث، إنما يكشف ما وراءه. إن الأحداث اللغوية السابقة تقدم صيغا للحياة قد فرضت على نسيج الحياة الأسبانية فرضا يتكشف منه شيئًا فشيئًا شبح التاريخ أكثر وضوحًا وتحددا. إن دراسة عناصر البنية التاريخية فى حركتها، ومنها اللغة سيجعلنا نعود فى الفصول التالية لبعض الاستعمالات اللغوية كلما كان ذلك مفيدا، ثم يضيف الكاتب ثبتا لكلمات ذات اشتقاق عربى أو لكلمات نظائر ترادف كلمات وصيغا عربية نظيرة.

استطراد حول قطالونيا [1] :

لم تنل اللغة القطالونية الفرصة لتحتك مباشرة بالإسلام والمستعمرين. فقد عاشت فترة تولى وجهها نحو جنوب فرنسا، وعندما عادت بوجهها - فى نهاية القرن ١٢ - إلى أسبانيا أتيح لها الاختلاط باللغة القشتالية. على أى الأحوال، إن قطالونيا لم تنتم أبدًا إلى

---

(١) أحد الأقاليم الأسبانية الشمالية المتميزة لغة وثقافة. وعاصمته برشلونة مسقط رأس المصور المشهور بيكاسو أما لغته فهى القطالونية التى كتب بها المتصوف لوليو أعماله التى تعد أهم الجسور الثابتة تاريخيًا لعبور التأثير العربى.

أسبانيا كما لم تنفصل عنها قط، وبذا يمكن فهم الانشقاق الأسبانى خلال التكامل، وترتب على وضع مثل هذا، أن قطالونيا قد تجمعت فى لغتها الحقائق اللغوية من ثلاث مدراس لغوية متباينة ومحيطة بالقطالونية أى يمكن القول أن هذه اللغة أخذت من العربية - ولكن أقل من القشتالية أو قل عبر القشتالية - كما أنها أخذت من البروفنسالية - وخاصة فى شعرها - كما أخذت - أخيرا من القشتالية - فى نثرها-، وفى جميع الأحوال هى لغة لها وضعها الخاص النابع من الوضع الخاص لقطالونيا - فى التاريخ الأسبانى، فلم تشبه الأسبانية (القشتالية) والبرتغالية.